﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾ [الرّعد: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط التّهديد بالتّضييق على الكافرين، وذلك بالفتح للمؤمنين، ليعلم الكّفار لِمَن عقبى الدّار

لمّا تقدّم التّهديدُ والإنذار في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾، وهو إنذارٌ لأنّهم يطلبون الآيات مع إضْمارِهم التّصميم على التّكذيب والاستمرار عليه، فشبّه عملهم ذلك بالمكر، ويكون نَقص أرضِهم من أطرافها من مكر الله تَعالى بهم جزاءً على مكرهم، فَلذلك أعقبه بقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أيْ: كما يمكر هؤلاء[1]، فلمّا ذكر أنّ أرضهم في نقصان وأنّهم إلى زوال؛ بيّن أنّ ذلك أمرٌ معهودٌ، فَمَكْرُ الأمم سابِقٌ مسطور في التّاريخ، فهو تمثيلٌ على التّهديد والإنذار.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَرَ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ تدلُّ على الاِحْتيالِ والخِداعِ[2]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[3]، قال الجُرجانيُّ: المكرُ: هو إيصالُ المَكْروهِ إلى الإنسانِ مِن حيثُ لا يَشعُرُ[4]، وأمّا السُّيوطيُّ فقال: ما يَقصِدُ فاعِلُه في باطِنِه خِلافَ ما يقتضيه ظاهِرُه[5]، وهو على ضربيْن:

أحدهما: مَكْرٌ محمودٌ، وذلك أن يُتحرَّى بذلك فِعلٌ جميل، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/173.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (مكر).
(4) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 227.
(5) السّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم، ص: 207.

والآخر: مذمومٌ؛ وهو أن يتحرَّى به فِعل قبيحٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، وقال بعضُهم: مِنْ مَكْرِ اللّه إمهالُ العَبد وتمكينه من أعراض الدُّنيا؛ ولذلك قال عليٌّ ﷺ: مَن وُسّع عليه في دنياه ولم يعلم أنّه مُكِرَ به؛ فهو مخدوعٌ عن عقله[1]، والمقصود بالمَكْر في الآية: صَرفُ الغيرِ عمّا يقصِدُه بحيلةٍ.

والمُراد: أنَّ اللّه تعالى أقْوَى منهم عند إرادةِ مُقابلةِ مَكْرِهم بِخِذْلانه تعالى إياهُم[2].

2) ﴿تَكْسِبُ﴾: أصلُ الكَسْبِ: يَدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، يُقالُ: كَسبتُ الشَّيءَ: أي: طَلبتُهُ، ومنه سُمّي طلبُ الرِّزق كَسْبًا واكتسابًا[3]، والكَسْبُ يُقال فيما أخَذه لنفسه ولغيره؛ ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولَيْن، فيُقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدتَه لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كَسْبٌ، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا[4]، ويأتي الكَسْبُ بمعنى الشَّيء المكتسب، وجمعه: مكاسب. ويُطلَق أيضًا على الجَرْح؛ أيْ: فِعل الشَّيء بالجارحة، والكواسِبُ: الجوارحُ مِن الإنسان والطَّير[5]، والمقصود بالكَسْبِ في الآية: ما يعمله الإنسانُ باختياره لجلبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضرٍّ.

3) ﴿نَفْسٍ﴾: النّون والفاءُ والسّينُ تدلُّ تصريفاتُها على خُروجِ النَّسيم كَيْفَ كانَ، مِنْ ريحٍ أوْ غَيْرِها، وإليه يَرْجِعُ فُروعُهُ، مِنْهُ التَّنَفُّسُ؛ وهو خُروجُ النَّسيم مِنَ الجَوْفِ، ونَفَّسَ اللّه كُرْبَتَهُ؛ وذلكَ أنَّ في خُروجِ النَّسيم رَوْحًا وراحَةً، والنَّفَسُ: كُلُّ شَيْءٍ يُفَرَّجُ بِهِ عَنْ مَكْروبٍ[6]، والنَّفْسُ في كلام العرب على وجهَيْن: أحدهما قولك: خرَجتْ نفسُ فلانٍ؛ أيْ: روحه. والآخرُ: أنَّ معنى النَّفْسِ حقيقةُ الشَّيء وجملته؛ يُقالُ: قتَلَ فلانٌ نفسَه[7]، ويُطْلَقُ النَّفْسُ على الدَّم؛ لأنَّهُ أساسُ الحَياةِ، أو لأنَّ الرُّوحَ تَخْرُجُ بِخُروجِهِ، يُقالُ: سالَتْ نَفْسُهُ؛ أيْ: دَمُهُ[8]، وتأْتي بِمعنى العَيْنِ، فيُقال: أصابَتْ فُلانًا نَفْسٌ؛ أيْ: عَيْنٌ، ونَفْسُ الشَّيْءِ: عَيْنُهُ[9]، والمقصود بالنَّفس في الآية: الذّاتُ والشَّخْصُ.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (مكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (مكر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/256.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (نفس).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تهديد المشركين، وتقوية عزيمة رسول الله ﷺ

لقد زادَ اللّه ﷻ في تسلية رسوله ﷺ وفي تثبيت فؤاده، فذكر أنَّهُ قَد مكرَ الّذين مِن قَبلِ مُشركي العرَبِ؛ كقوم عادٍ وثمود وقوم شعيب وإخوان لوطٍ برُسُلِهم، وكفروا بهم وكادوا لهم، وأرادوا إخراجَهم مِن بلادِهم، فمكَرَ اللّه بهم، وانتَقم منهم، وجعَل العاقبةَ لعِبادِه المتَّقينَ،فللّه المكرُ كُلُّه؛ لأنَّ أسبابَ المَكرِ بيدِه، ومكْرُ الكفّارِ مخلوقٌ لا يضُرُّ إلّا بعد إذنِه، فكذلك هؤلاء المُشركونَ مِن قُريشٍ يمكُرونَ بك يا نبيَّنا، واللّه مُنَجّيك مِن مَكرِهم، ومُلحِقٌ ضرَّ مَكرِهم بهم دونَك، يعلَمُ اللّه ما تعمَلُ كُلُّ نَفسٍ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازيها على جميعِ أعمالِها؛ الظّاهرةِ والباطنةِ، ومِن ذلك عِلمُه بما يعمَلُ هؤلاء المُشركونَ مِن قَومِك - يا أيُّها الرَّسولُ - وما يَسْعَون فيه مِن المَكرِ بك، وسيَعلمُ الكُفّارُ يومَ القيامةِ لِمن تكونُ عاقبةُ الدّارِ الآخرةِ حينَ يَدْخلون النّارَ، ويدخلُ المؤمنونَ الجنّةَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾:

طبيعة المكذّبين واحـــدة، على اختلاف المواقف والأزمنة

افتتح النّظمُ الكريم قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بالواو الدّالّة على الاستئناف[2]؛ لبيان أنّ شأنهم ليس إلّا كشأن مَن قبلهم، وأنّه كما انتفت فائدةُ مَكْرِ السّابقين؛ فإنَّ مَكْرَ هؤلاء ليس بِنافِعِهم، وقد ذكَرَ القرآنُ الكريم هذا الخبر للمشركين؛ لبَيانِ أنّهم لن يضيروا النّبيَّ ﷺ وأصحابه، بدليل أنّ مكر السّابقين ومحاولتهم فتنة المؤمنين لم تُؤثّر في تحويلهم عن دينهم الّذي ارتضوه، وفيه دِلالة على بطلان مكرهم، فهو كالهباء المنثور.

(1) ابن أبي زَمَنين، تفسير القرآن العزيز: 2/360، والواحديّ، الوجيز، ص: 576، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/29.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/149.

دلالة ﴿وَقَدۡ﴾، مع الماضي ﴿مَكَرَ﴾:

مكر الكفّار مع الأنبياء، مؤكّد الوقوع، محقّق التّكرار

أدخل النّظمُ الكريم حرفَ التّحقيق (قد) على الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تأكيدًا لتحقيق المكر؛ لأنّه قد يُنكِر سليمُ الدّين والاعتقاد أن يتجرّأ أحدٌ ما على المكر على الأنبياء المؤيَّدين بالبرهان، فأكّد أنّ المكر قد وقع من الأقوام الّذين قبلهم وماثَلوهم بالكفر؛ فكان مكرهم وبالًا عليهم، وطوى القرآنُ في هذه الجملة مكرَ الكافرين الّذي ألفوه في الكيد لرسول الله ﷺ ولأصحابه؛ لأنّه كان سببًا لرفعة الإسلام وأهله، بنصرة الله لنبيّه وللمؤمنين.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾:

الاحتيال للصّرف عن المقصد، يُعبّر عنه بالمكر

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعًاۖ﴾، عبّر بالمكر وهو: الصّرفُ عن المقصد بحيلة[1]، فكأنّهم يصرفون أنفسهم وغيرهم بحيلة الجدل والكذب، فشبّه تصميمهم على التّكذيب رغم الوعيد بالمكر، فمكروا كما مكر مَن كان مِن قبلهم "وفي هذا التشبيه رمز إلى أنّ عاقبتهم كعاقبة الأمم الّتي عرفوها. فنقص أرض هؤلاء من أطرافها من مكر الله بهم جزاء مكرهم"[2].

سرّ التّعبير في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

عهد السّابقين قريب نسبيًّا، وليس متوغّلًا في القِدم

عبّر النّظمُ الكريم عن الأمم السّابقة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ولم يَقُل: (وقد مكر السّابقون)؛ لأنّه أراد أن يُبيّن أنّ الّذين فعلوا ذلك كانوا على عهد قريب من نبوَّته ﷺ؛ كما فعل اليهودُ في المدينة النَّبويَّةِ من المكرِ برسول الله ﷺ والمسلمين، وصور ذلك واضحة لا تحتاج إلى تفصيل، ويكفي أن نذكر منها ما فعله بنو النَّضير وبنو قَيْنُقاع، وكان العقاب لهم بمكر الله تعالى أن

(1) الرّاغب، المفردات: (مكر).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/173.

أجْلاهُم عنِ المدينة وطردهم منها، وكما فعل النَّصارى في أطراف الجزيرة العربيَّة، وحروب الرّوم ليست ببعيدة عنّا.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾:

كلُّ مَن مكروا، لـم ينفعهم مكرهم شيئًا

أوجز النّظمُ الكريم العبارة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ فحذف ما تقديره: (فلا عبرة بمكرهم)؛ لأنّ المكر لله تعالى جميعًا، والمعنى: قد مكر الكفّار الّذين خَلَوا من قبلِ كفّارِ مكّةَ بأنبيائهم والمؤمنين، كما مكر هؤلاءِ، فَطوى في هذه الجملة بيانَ مكرِهم الّذي اجتمعوا عليه[1]، ومآل ذلك المَكْر، وهذا الخبر "تسليةٌ لرسول الله ﷺ، بأنّه لا عبرةَ بمَكْرهم ولا تأثير، بل لا وجود له في الحقيقةِ ولم يصرّح بذلك؛ اكتفاءً بدلالة القصرِ المُستفادِ من تعليله أعني قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾"[2].

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾:

التّدبير كلّه بيد الله تعالى، ومَن أسلـم لـه أمـره كفاه

افتتح النّظم الكريمُ الجملةَ في قوله تبارك اسمه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ بالفاء الدّالّة على التّعليل؛ لبيان علّة انتفاءِ تأثير مكرهم بدعوة الحقّ، وذلك أنّ التّدبير كلّه بيدِ الله تعالى، فلمّا "كان ذلك كذلك، تسبَّب عنه أن يُقال: ﴿فَلِلَّهِ﴾؛ أي: الملكِ الأعظم المحيط علمُه وقُدرته خاصّةً"[3].

سِرُّ التقديم في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾:

اختصاص المَكْر بـه جـلّ شأنـه، بما يليق بكماله وقهره

قدّم النّظمُ الجليل المُسنَدَ مِن الجارِّ والمجرور ﴿فَلِلَّهِ﴾ على المُسنَد إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ للدّلالة على اختصاص المَكر به جلّ شأنه، فجِنْسُ المكرِ جميعُه لله تَعالى، و"لا وجودَ لمكرهم أصلًا؛ إذْ هو عبارةٌ عن إيصال المكروهِ إلى الغير من حيث لا يشعُر

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/366.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/366.

به، ولمّا كان جميعُ ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقُدرته، وإنّما لهم مجرّدُ الكسب من غير فعلٍ ولا تأثير"[1]؛ لذلك كان مَكْرُ جميع الكافرين لا وزن له؛ لأنّه حاصلٌ بتخليق الله لَهُ وإرادته؛ فلا يضُرُّ إلّا بإذنه ولا يُؤثِّر إلّا بتقديره، وفيه إشارةٌ لتسليَةِ النبيِّ ﷺ وتثبيت فؤاده بأنَّ مكرَهم لا أثر له؛ لذلكَ لا يكون الخوفُ إلّا مِنَ الله تعالى.

دلالة التَّعبير باسمِ الجلالة ﴿فَلِلَّهِ﴾:

لفظ الجلالة يجمع كلّ صفات الجمال والجلال والكمال

عبَّر القرآنُ الكريم بالاسْمِ الأحسَنِ في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ لتربيةِ المهابة في القلوب، ولزيادة التّعظيم؛ لأنّ الاسمَ الأحسَنَ يجمع كلَّ صفاتِ الجمال والجلال والكمال؛ فأمْرُ المكرِ مندرجٌ تحت هذه الصّفات؛ لذلكَ كان التّعبيرُ يحملُ طَمْأنَةَ رسولِ الله ﷺ مِن مكر الماكرين مِنَ المشركينَ.

سِرُّ الإسناد في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾:

المكر بين الحقيقة والمجاز، مفصحٌ عن المعنى في السّياق

إنَّ إسنادَ المكرِ إلى الله تعالى يجوز أن يكون على الحقيقة، والمُراد به تدبيرُ الله تعالى ما يسوء به الكافرين باستدراجهم بنعَمِه وما أعدَّ لهم من نقمة بعدها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 44].

ويحْتَمِلُ لغويًّا أن يكون على المجاز من باب ذِكْر السّبب، وأراد ما يتسبَّب عنه من العقوبة، ويكون المعنى: فللّه جزاء المكر جميعًا، ويكون هذا الإطلاق من باب الاستعارة أو المشاكلة؛ لأنّ فعله جاء بمقابل فعلهم وردًّا عليهم، فلمّا كان فعلهم مكرًا سُمّي فعله الموضوع إزاءه مكرًا؛ "لأنّه ناشئ عن مكرهم جزاءً لهم"[2]، وعلى هذا يكون إسناد المَكْر إلى الله تعالى من باب تسمية العقوبة باسم الذّنب الّذي وقعت عليه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشّورى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.

40]. والمُتعيِّنُ هوَ الأوَّلُ وهو أنَّ إسنادَ المَكرِ للّه تعالى حقيقةٌ، والقولُ بالاستعارَةِ أوِ المشاكلَةِ لا يجري على عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ أصحابِ الحديثِ، بل هو مصادِمٌ لَها، مخالفٌ لإجماعِ أهلها.

بلاغة القصر في الآية الكريمة:

في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ قَصْرٌ بالتّقديم والتّأخير، فقدّم الخبر على المبتدأ، فجعل المَكْرَ مقصورًا على اللّه تعالى، والغرض من ذلك تقوية مضمون الجملة، فلا مكرَ على وجه الحقيقة إلّا للّه تعالى؛ لأنّ مكرَ غيرِه كالمعدوم، لِعَدَمِ قُدْرَتِهم على تنفيذه إلّا أن يشاء اللّه تَعالى وقوعَه، وهو قصرٌ إضافي؛ إذ إنّ المكر يزاوله النّاسُ أيضًا، و"إنّما جعل جميع المكر للّه بتنزيلِ مكر غيره منزلةَ العَدَم"[1]، وهو قصر صفة على موصوف، فصفة المَكْر مقصورة على اللّه تعالى، وقد دلّ هذا القصر على أنّ مَكْر الكافرين لا اعتداد به ولا ثمرة له في تحقيق غايتهم؛ لأنّ اللّه مُذهبٌ كيدهم وجاعله هباءً منثورًا[2].

قصْرُ المَكْر على اللّه تعالى، لتنزيل مَكْر غيره منزلة العدم

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْمَكْرُ﴾:

اللّامُ في قوله تَعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾، تدلّ على الجنس والاستغراق، لكلّ أفراد المكر، وفي هذا دليلٌ، على أنّ مكرَ البشرِ مخلوقٌ، ويؤيّد ذلك التّعبير بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾.

مكر البشر ضعيفٌ محدودٌ، ومَكرُ اللّه لا تُعيقه قوّةٌ ولا حدود

سرّ فصل قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ﴾:

فُصِلت الجملةُ في قوله تبارك اسمه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها بيانٌ تعليليٌّ لمضمون الكلام الآنف؛ "لأنّه لمّا كان يعلم ما تكسب كلّ نفسٍ من ظاهر الكسب وباطنه كان مكرُه أشدّ من مكرِ كلّ نفسٍ؛ لأنّه لا يفوته شيء ممّا تُضمره النّفوس من المكر ... فإنّ القويّ الشّديد الّذي لا يعلم الغيوب قد يكون عقابه

علمه تعالى بالكسب، في الظّاهر والباطن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/174.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3973.

أشدّ، ولكنّه قد يفوقه الضّعيف بحيلته"[1]، ففيه تأكيدٌ لغَلَبة مَكْرِهِ تعالى لمكرهم؛ إذْ إنّه بالإضافةِ إلى حصر المكر به فإنّه كذلك يعلم كلّ شيء، ومن جملة ذلك شأن مَكْرِهِم، فالعذابُ نازلٌ بهم لا محالةَ، فاللّه تعالى أحاط بكلّ شيءٍ مكرًا وعلمًا.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾ في الآية:

عِلْم الله تعالى شاملٌ لكلّ شيء

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بـ ﴿مَا﴾؛ للدّلالة على العموم، فهو يعلم كلَّ مكرهِم وكَسْبِهِم، فعِلْمُهُ شاملٌ لكلّ فعلٍ يقومون له، وهذا تأكيد لقدرته ﷻ، فإنّ القديرَ لا بدّ أن يكون عليمًا، وأن يكون علمُه شاملًا.

سرُّ التّعبير بالكسب دون المكر:

الكسب أعمّ من المكر

عبّر النّظم الكريم بالكسب في قوله جلّ شأنه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ دون المكر؛ لأنّ الكسب أعمّ من المكر؛ فهو "الفعل لاجتلاب النّفع أو دفع الضّرّ"[2]، فهو جَلّ شأنه يعلم ما يُدَبّرون لاجتلاب النّفع لأنفسهم على وفق ظنّهم، ولم يُعبّر بالمكر؛ لأنّ التّعبيرَ بالكَسْبِ يُشْعِرُ بأنّهم يبتغون جلبَ المنفعة لأنفسِهِم بذلك المكْرِ.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَكْسِبُ﴾:

كلّ كسب يصدر من العبد، فالله يعلمه

لمّا كان أمرُ الكسب من الإنسان مُتجدّدًا، سواءٌ أكان في الظّاهر أم في الباطن؛ عبّر عنه بالفعل المضارع ﴿تَكْسِبُ﴾، وناسب ذلك التّعبير عن العِلْمِ بالمضارع بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ ليُدلّل على أنّ كلّ كسبٍ يصدر مِنَ العبد، فاللّه يعلمه، وفي هذا تحذيرٌ مِن ارتكاب المعاصي، وعلى رأسِها المكر السَّيِّئُ.

بلاغة التّعبير بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾:

علم الله تعالى كــلّيٌّ وجــزئيٌّ، يتعلّق بعموم كلّ نفس

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنَ المعلوم أنّ اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/174.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.

تعالى يعلم ما تَفْعَلُ النّفوس وما تكسب، ولم يَقُلْ: (يعلم ما تكسب النّفوس)؛ لأنّه ليس نصًّا في الشّمول، فعبّر عن تأكيد إحاطة علمه بكلّ نفسٍ بإسناد الكسب إلى ﴿كُلُّ﴾، فيكون ذلك تأكيدًا لعلمه الشّامل بكسب كلِّ نفس على وجه الاستقلال؛ أيْ: أنّه ﷻ ليس علمه كلّيًّا وحسب، بل يتعلّق بالجزئيّات أيضًا.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾:

خيبة المكر في الدّنيا، يتبعها سوء العاقبة في الآخرة

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]، فلمّا بيّنَ أنّهم في شأن المكر كالّذين من قبلهم مكروا دون أن ينالوا مأرَبَهم؛ أخبرَ عن سوءِ عاقبتهم وعلمهم الّذي سيتحقّق بخيبة مَكْرِهم.

دلالة السّين في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾:

الوعد المستقبل من الله تعالى، قطعيّ الوقوع، مُؤكَّد التّحقّق

أدخل النّظمُ البليغُ سينَ الاستقبال في قوله تبارك اسمه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لأنّها تدلّ على وقوع الخبرِ في المستقبل؛ فالعلم بذلك كائنٌ في المستقبل، وهو حين توضع موازين العدل ليقضي بين العباد؛ ولمّا كان هذا معلومًا بأنّه واقع في المستقبل، فإنّ السّين هنا "لتأكيد وقوعِ ذلك وعلمِهم به حينئذٍ"[2].

سرُّ التّعبير بالعلم في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾:

العاقبة للمتّقين، ولو كاد لهم أهل الأرض أجمعين

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لأنّ المُراد به علم المعاينة، لا علم الإخبار، والكفّار قد عاينوا توالي الهزائم لهم معركةً بعد معركةٍ حتّى أصبحت أرض الجزيرة العربيّة أرض إسلام، ولا مكان للكُفر فيها، واندحر الشّرك وأهله من المنافقين واليهود الّذين كانوا يكيدون للإسلام، وأصبحت الكلمة العليا في هذه الأرض للمسلمينَ.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/149.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

سرّ اختيار جمع ﴿ٱلۡكُفَّرُ﴾ بهذه الصيغة:

المُـخـبَر عنهم جنس الكفّار، لا مجموعة منهم

اختار النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة الجَمْعِ ﴿ٱلۡكُفَّرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ دون (الكافرين) كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ (الكفّار) صيغة جمع تكسير؛ لأنّ جمعَ التّكسير يُقَرِّبُ الصّفات من الاسميّة و(الكافرون) صيغة جمع مُذكر سالم، والجمع السّالم يُقرِّب الصّفات من الفعليّة، ويُراد به الحَدَث في الغالب، أمّا جمع التّكسير فهو دالٌّ على الذّوات، كما أنّ الكفّار فيه شيء من المبالغة لما في التّضعيف والتّثقيل من أثر صوتيّ، فهو يدلّ على التّكثير، كما أنَّ فيه دلالة على جنس الكفّار، فهو يشمل كلّ كافر "أي: كلّ كافر بوعد لا خُلْف فيه، إن كان من الجهل بحيث لا يعلم الأشياء إلّا بالتّصريح أو الحسّ"[1].

دلالة تعدّد القراءات في لفظ ﴿ٱلۡكُفَّرُ﴾:

لـلـقـراءات القرآنيّة دور في توجيه المعنى بتنوّع وبيان

قرأ نافع وابنُ كثير وأبو عمرو هذا اللّفظ بالإفراد (الكافر)، ووجه ذلك أنَّ اللّامَ فيه للجنس يستغرق كلّ أفراد الكفّار؛ كالإنسان في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾، وقرأ الباقون بالجمع في قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّرُ﴾؛ والمُراد: جميع أهل الكفر[2].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

عاقبة الحياة الدّنيا، لأهل الإيمان، ممّا سيتيقّنه آنئذٍ أهل الكفران

عبّر القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لِما تَحْمِلُه مِن تحذير الكافرين، ودعوة المؤمنين إلى العمل؛ لأنّ المعنى عاقبة هذه الحياة الدّنيا الّتي تكون فيها المغالبة بين الحقّ والباطل، والكفر والإيمان، لَمن تكون العاقبة؟ تكون لأهل الإيمان بما أعدّه الله لهم من النّعيم، والنّار لِمَن عصى وتكبّر، وفي ذلك خسران مبينٌ لهم.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.
(2) ابن أبي مريم، الموضّح: 2/705.

سرّ تَكرار الألفاظ من الجَذر (عقب):

تَـكـرار المُـهـمّ، تـأكـيـدٌ لـه وترسيخٌ لذِكْره

تكرّرت في السّورة ألفاظ العاقبة كما في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾، وقوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [الرعد: 11]؛ وذلك لبناء السّورة على أمْرِ بيان العاقبة ومآل النّاس إلى مصيرهم، فأكثرت السّورة من لفظ العُقْبى للتّذكير والتّنويه به، بحيث يكون حاضرًا في السّمع، وتألفه الأذن، فيرسخ في الفؤاد.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»